مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 09 عدد: 4 السنة: 2020
ص: 358 - 374 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

# مكانة الشعر الجاهلي عند بعض المستشرقين

# The status of pre-Islamic poetry among some orientalists

[*] ط.د: **رشدي ضيف** [1] ، أ.د: **عمر عيلان** [2]

**Rochdi Dif 1 ,Omar Ailane 2**

[1] جامعة العربي التبسي – تبسة، (الجزائر)

Larbi Tebessi University- Tebessa, Algeria

[2] مديرمخبر البحث في الترجمة وتحليل الخطاب/ جامعة خنشلة (الجزائر)

University, Khenchela, Algeria

rochdi.dif@univ-tebessa.dz

| تاريخ الإرسال:2020/04/15 | تاريخ القبول:2020/05/26 | تاريخ النشر: 2020/11/07 |
|---|---|---|

## ملخص البحث

يسعى هذا البحث للكشف عن مكانة الشعر الجاهلي – باعتباره نصّا مؤسّسا في الثقافة العربية والإسلامية – في خطاب الاستشراق من خلال عرض بعض الآراء النقدية لمستشرقين أولوا عناية كبيرة بهذا المكون الثقافي، تحقيقا ونشرا ودراسة وترجمة وتأريخا، مع بيان مميزات وخصائص كل مستشرق في رؤيته النقدية لمكانة الشعر الجاهلي الفنية والتاريخية، وقبل تحقيق هذه الغايات المعرفية يقدم البحث في بدايته وبإيجاز مفهوم الاستشراق لغة واصطلاحا وأهم مراحله التاريخية بغية فهم أفضل لطبيعة نشاط الاستشراق في التاريخ.

**الكلمات المفتاح** : استشراق؛ مكانة، شعر؛ جاهلي؛ مستشرقون .

## Abstract :

This research seeks to uncover the status of pre-Islamic poetry - as it is a foundational text in Arab and Islamic culture - in the discourse of Orientalism by presenting some critical opinions of orientalists who have paid great attention to this cultural component, through investigating, publishing, studying, translating and dating it. While explaining the advantages and characteristics of every orientalist in his critical view to the artistic and historical position of Pre-Islamic poetry, but before achieving these epistemic ends, the research presents at its beginning and briefly the concept of Orientalism as a language and idiom and its most important historical stages in order to better understand the nature of Orientalism's activity in history.

**Keywords:** Orientalism; Status, Poetry; -Pre-Islamic; Orientalists.

[*] ارشدي ضيف. rochdi .dif@univ-tebessa.dz

**توطئة:**

شكلت موضوعة الاستشراق مجالا بحثيا ومعرفيا داخل حقل الدراسات الإنسانية والآداب المقارنة والعلوم الاجتماعية والأنثروبولوجيا الثقافية؛ باعتبارها ظاهرة استثنائية في التاريخ العلمي البشري؛ فما الذي يغري الآخر (الغربي) بفهم واكتشاف الشرقي عامة والعربي المسلم بشكل خاص؟ وما الغايات المرجوة من وراء طلب ثقافات الشعوب الشرقية وآدابها وعاداتها ومقومات حضاراتها ؟ ويمكننا أن نطرح السؤال بشكل آخر على النحو الذي طرحته "عائشة عبد الرحمن" بنت الشاطئ وذلك حين تساءلت:« ما الذي يغري الغرب الحديث بتراثنا، وقد أدى غرضه في خدمة عصر الإحياء، وصار للغرب الدور القيادي للحضارة المادية والعلمية ؟ هل يفتش فيه عن شيء قد يكون فاته فيما عرف من تراثنا ؟ أو هل يرى فيه ميراثا إنسانيا من حقه أن يصان وينشر ما دام أهله قد نبذوه وأضاعوه ؟ » .[1]

ليس من أهداف هذا البحث تقصي دوافع الاستشراق، وأسبابه ونتائجه التي تحدّدت واختلفت على مرّ العصور، ولكن الذي يقرره البحث ويطمئن إليه هو أن الاستشراق يعد نافذة أطل منها الغرب على الشرق، واستطاع عبر تاريخه الطويل أن يحدد العلاقة بين الشرق والغرب عن طريق سردياته المتطابقة أحيانا، والمختلفة أحايين كثيرة مع حقيقة الشرق وواقعيته فماذا نعني بمصطلح "استشراق"؟ وماهي أهم أدواره التاريخية، وذلك قبل الحديث عن أهمية ومكانة الشعر الجاهلي في خطاب الاستشراق.

**أولا– الاستشراق: لغة واصطلاحًا:**

تقرر لدى الباحثين والمشتغلين بالدراسات الإنسانية والحضارية والتاريخ والأنثروبولوجيا أن الاستشراق مصطلح شامل ومركب شديد التعقيد« يطلق عادة على اتجاه فكري يعنى بدراسة الحياة الحضارية للأمم الشرقية بصفة عامة ودراسة حضارة الإسلام والعرب بصفة خاصة» [2] وفيما يلي نحاول ضبط مفهوم "الاستشراق" وتحديد مجالاته وفهم طبيعة موضوعاته.

**1–الاستشراق في اللغة:**

جِذْرُ لَفظَةِ "استشراق" من الفعل الثلاثي "شَرَقَ" يقال: « و(شَرَقت) الشمس طلعت وبابه نَصَرَ ودَخَلَ »[3]. ومنه الموضع الذي تشرق منه الشمس (المشرق) وتعد كلمة "استشراق"

من التسميات الحديثة وإن كان ظهوره وميلاده قديما، كما أنه لم يرد في لغة العرب واصطلاحاتهم ولا في معاجمهم من مثل: "لسان العرب"، و"تاج العروس" و"القاموس المحيط"، وأول ظهور له كان في معجم "متن اللغة" لمؤلفه " أحمد رضا" الذي يعرفه بقوله:« استشرق ؛ طلب علوم أهل الشرق ولغاتهم "مولّدة عصريّة" يقال لمن يعنى بذلك من علماء الفِرنجة » [4]. وإضافة (الألف والسين، والتاء) للمادة الثلاثية (شرق) تعني الطلب كقولنا: استنصر أي طلب النصر، فاستشرق بهذا المعنى طلب ماله علاقة بالشرق من فكر وثقافة وفن ولغة وأدب وعلوم... وبالرجوع إلى معنى كلمة استشراق في بعض المعاجم الأجنبية نجده يدل على كل التخصّصات التي تتعلق بدراسة الحضارات الشرقية والمستشرق( orientaliste) هو الذي تخصص في دراسة الشرق وحضاراته.[5]

## 2-الاستشراق في الإصطلاح:

مصطلح "**الاستشـراق**" " orientalisme" من بين المصطلحات التي تعددت تعريفاتها، واختلف الباحثون في تحديد ماهيتها؛ فليس هناك إجماع على تعريف جامع مانع كما يقال لهذا المصطلح نظرا لتعدد الحقول المعرفية التي يتردد فيها، وتباين رؤى الدارسين حول طبيعة موضوعاته وذلك بحسب خلفياتهم المعرفية والإيديولوجية، وفيما يلي نورد بعض التعريفات "للاستشراق" من داخل الثقافتين الغربية والعربية الإسلامية.

يعرف "رودي بارت" الاستشراق فيقول:« الاستشراق علم يختص بفقه اللغة خاصة وأقرب شيء إليه إذن أن نفكر في الاسم الذي أطلق عليه. كلمة استشراق مشتقة من كلمة "شرق". وكلمة شرق تعني مشرق الشمس. وعلى هذا يكون الاستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي » [6]. يعتمد هذا التعريف الأدبيات الكلاسيكية الغربية في تحديدها مجال نشاط الاستشراق وذلك بتطبيق الغربين للمناهج الفيلولوجية[7]، على لغات الشرق والعربية واحدة منها كما طبقوها على الكتابات القديمة الإغريقية واللاتينية، ويجمع معظم الدارسين الغربيين على أن من يروم البحث في علوم الشرق أن يتقن واحدة من لغاته أو أكثر وهو ما أشار إليه" ديتريش" بقوله:« المستشرق هو ذلك الباحث الذي يحاول دراسة الشرق وتفهمه ولن يتأتى له الوصول إلى نتائج في هذا المضمار ما لم يتقن لغات الشرق » .[8]

ومن الغربيين الذين تناولوا ظهور الاستشراق ومفهومه المستشرق الفرنسي "مكسيم رودونسون" الذي أشار إلى أن مصطلح "مستشرق" ظهر في اللغة الانجليزية عام (1779) بينما

ظهر في الفرنسية عام (1799)، وأن الاستشراق كان مطلب إيجاد فرع متخصص من فروع المعرفة لدراسة الشرق ويضيف بأن الحاجة كانت ماسة لوجود مختصين للقيام على إنشاء الجمعيات والمجلات المكرسة لبلد ما أو شعب ما[9].

وإذا انتقلنا إلى المجال العربي والإسلامي فإننا نجد "إدوارد سعيد" يعرفه بقوله:« فكل من يقوم بتدريس الشرق. أو الكتابة عنه، أو بحثه، ويسري ذلك سواء أكان المرء مختصا بعلم الإنسان ( الأنثروبولوجي) أو بعلم الاجتماع. أو مؤرخا، أو فقيه لغة (فيلولوجيا) في جوانبه المحددة والعامة على حد سواء. هو مستشرق وما يقوم به هو أو هي بفعله هو استشراق » [10]. في هذا التعريف يخص إدوارد سعيد الاستشراق بالجانب الأكاديمي العلمي المنظم تحت نظر مؤسّساتي في الغالب تجتمع تحت هذا الاستشراق حقول معرفية عديدة تسهم في دراسة بنى الشرق والكتابة عنه. وفي موضع آخر يعرفه بقوله:« أسلوب من الفكر قائم على تمييز وجودي " أنطولوجي" ومعرفي "ابستمولوجي" بين الشرق وفي (معظم الأحيان) "الغرب" » [11].

أما "عبد الرحمن خرشي" فيعرفه بقوله:« والاستشراق بالمعنى العام هو معرفة بالشرق وشعوبه وعاداته وتقاليده وأديانه ولغاته وتراثه وتاريخه. لذلك فإنه غالبا ما يختلط بميادين بحوث وتخصصات أخرى كاللاّهوت وعلم الآثار والحفريات والفيلولوجيا والفلسفة والفنون... » [12]. إن امتزاج الاستشراق بحقول معرفية عديدة يجعل من المعرفة الاستشراقية معرفة مرنة ومتكيفة مع كل مرحلة تاريخية ولهذا السبب كان هناك ما أصبح يعرف "بالاستشراق التقليدي"، و"الاستشراق الجديد" و"ما بعد الاستشراق"؛ ففي النهاية يبقى الاستشراق خاضعا في تطوره، ومنطلقاته لتصورات الغرب ومناهجه العلمية التي عرفت تحولات جذرية على مرّ العصور.

ما نخلص إليه هو أن الاستشراق بالإطلاق العام توجه فكري وثقافي وعلمي تَرْجَمَتْهُ تلك الدراسات والبحوث والكتابات التي أنتجها علماء الغرب قصد معرفة كافة البنى المشكلة لكيان الشرق الروحي والمادي، لاعتبارات تختلف من مستشرق لآخر، ومن مرحلة تاريخية لأخرى.

**ثانيا – كرونولوجيا الاستشراق:**

كما لم يتفق الدارسون في تحديد دقيق لمفهوم "الاستشراق" جاءت تقسيماتهم لأطواره ومراحله التاريخية التي استغرقها منذ أكثر من ألف عام متباينة هي الأخرى؛ فعلى سبيل المثال ذهب أحمد سمايلوفيتش إلى أن حركة الاستشراق منذ ميلادها وحتى القرن العشرين مرت بثلاثة

أطوار: التكوين والتقدم والإنطلاق؛ ففي حركة التكوين أو النشأة والتي تبدأ من القرن الثامن الميلادي ظهر نشاط استشراقي استجابة لظهور الإسلام وامتداده فما كان من الكنيسة إلاّ أن رعت هذا النشاط قصد معرفة هذا الدين الجديد، والتصدي له باعتباره خطرا يهدد المسيحية وأتباعها وهرطقة يجب إيقافه والرد عليه؛ فمنذ أن التقى الغرب بالعرب عن طريق الأندلس والجهود متضافرة حول عداء الإسلام وأهله من جهة والمساعي مكثفة من أجل الحصول على معرفة بأحوال الشرق وأهله من جهة أخرى.[13]

وفي الطور الثاني وهو طور التقدم دفعت الحروب الصليبية (1096 – 1291م) بحركة الاستشراق قدما، وازداد توسعها فلقد« أدى قيام الحروب الصليبية إلى ازدياد روح التعصب الديني، وانعكست هذه الروح على (الاستشراق) و قد بدأ الجاحدون للإسلام من الأوربيين يتعلمون اللغة العربية، لا حبا فيها ولكن ليتخذوها وسيلة إلى فهم القرآن، وسلاحا في مناقشته وقد أدركوا حينئذ أن المناقشة عن علم، أجدى وأقوى من المناقشة بغير سلاح ولا عدّة ».[14]

إنّ النتيجة التي خلص إليها الغرب من وراء هذه الحروب هي اقتناعه بأن الشرق يتفوق عليه فكريا وحضاريا وعلميا، فما كان منه إلا أن وجه جهده صوب نقل العلوم، والمعارف وترجمتها من العربية إلى اللاتينية ومنها إلى باقي اللغات الأوروبية، وشرع في بناء المدارس والمعاهد والمراكز العلمية، ونشطت من وراء ذلك مساعي تعلم العربية فقامت للبلاد الأوروبية نهضة علمية وثقافية كبيرة ويمكننا تحديد مرحلة تقدم الاستشراق بحسب رأي سمايلوفيتش منذ بداية الحروب الصليبية إلى غاية ظهور الطباعة حوالي القرن الخامس عشر الميلادي.[15]

أما مرحلة الانطلاق– وبعد قيام نهضة أوروبا– فقد اتسمت بارتياد الاستشراق آفاقا رحبة شملت دراسة الإسلام، والتعمق في فهم اللغة العربية وآدابها. وفي القرن السادس عشر ازدادت طباعة المؤلفات العربية من مثل: كتب الطب والرياضيات والجغرافيا...وأصبحت في كل البلاد الأوروبية مدارس وكراسي لتعليم العربية، كما زاد الاهتمام بالمخطوطات العربية حيث عكف المستشرقون على جمعها وتحقيقها ونشرها.[16]

لقد شهد الاستشراق في القرنين السادس عشر والسابع عشر تطورا كبيرا في النواحي العلمية والدراسات المتخصصة، وبحلول القرن الثامن عشر تحددت معالم الاستشراق وتوضحت اتجاهاته ومدارسه بفعل عوامل عديدة منها:.

1- إنشاء كرسي اللغة العربية في جامعتي اكسفورد وكامبريدج.

2- التوسع الاستطاني الأوروبي في مناطق الشرق الأقصى.

3- حملة نابليون على مصر (1798- 1801) وما صاحبها من نشاط استشراقي كبير.[17]

اتسعت دائرة الاستشراق في هذا الطور، وازدادت عناية الغرب بآداب العرب وتراثهم فقامت الدول الأوربية بإنشاء الجمعيات العلمية قصد دراسة الشرق فتأسست الجمعية الأسيوية الفرنسية (1822)، والجمعية الآسيوية الإنجليزية (1824). وظهرت المؤتمرات العلمية للاستشراق من أجل تكثيف الجهود والاطلاع على نتائج الدراسات والبحوث التي كانت تخص الأقطار العربية والشرق عموما.[18]

وفي القرن العشرين تأثر الاستشراق بأحداث مفصلية مست العالم العربي من مثل الدعوة إلى الإصلاح والنهضة ومقاومة الاستعمار ما أدخل الاستشراق في أزمة ؛ فمن كان بالأمس مادة للدرس والبحث أصبح اليوم ذاتا دارسة مستقلة فاتجه الاستشراق إلى إعادة ترتيب أوراقه وتغيير آلياته، وتجديد منطلقاته وذلك بالغوص في بنية الفكر والأدب العربيين ودراسة الشعوب الإسلامية وأنظمتها الاجتماعية والثقافية.[19]

بينما يرى أحد الدارسين أن حركة الاستشراق في سيرورتها التاريخية تحددت بمرحلتين أساسيتين:

الأولى تمثل البداية وتمتد من القرن الثامن الميلادي إلى غاية نهضة أوروبا، وفيها التقى العالم الإسلامي بالغرب عن طريق الأندلس وصقلية؛ فتأسست في العديد من مناطق أوروبا مراكز للعلم ساهمت في بناء حضارتها.[20]

الثانية وتمتد منذ عصر النهضة الأوروبية حتى الآن وقد اتسمت هذه المرحلة بترجمة ونقل العلوم العربية الإسلامية إلى اللغات الأوروبية، وإنشاء المدارس والمعاهد وكثرت الرحلات إلى الشرق وتم جلب المخطوطات بالوسائل المشروعة وغير المشروعة وفي القرن التاسع عشر ازدادت حركة الاستشراق وتنظمت حركتها تحت رعاية الحكومات الغربية التي أسست مدارس ومعاهد لتعلم لغات الشرق، كما أنشئت الجمعيات والمجلات وعقدت المؤتمرات وانتقلت العناية بعد ذلك إلى دراسة المناطق الإسلامية في كافة المجالات حتى عصرنا هذا.[21]

يصعب تحديد تاريخ دقيق لبداية الاستشراق ومن هو أول مستشرق؟ كما يصعب تحديد منعطفاته الكبرى نظرا لطبيعة هذه الظاهرة المعقدة والمتشابكة والممتدة زمنيا ومكانيا وما نستطيع أن نخلص إليه هو أن الاستشراق ظاهرة ثقافية تاريخية شديدة التعقيد والتركيب ساهم في تشكيل بنيته، ومنطلقاته الفكرية عوامل عديدة من مثل: التبشير، والرغبة في اكتشاف الآخر، والاقتصاد والإيديولوجيا والسياسة والاستعمار والحاجة العلمية، وهذه العوامل والمكونات المتباينة قد حددت معالم نشاط الاستشراق وفلسفته واتجاهاته وتطوره عبر التاريخ.

**ثالثا– مكانة الشعر الجاهلي عند بعض المستشرقين:**

إذا كان الاستشراق بالنسبة لنا هو دراسة كافة البنى الثقافية والحضارية التي تميزنا عن باقي الأمم الشرقية الأخرى، فإنه يأتي على رأس هذه البنى الثقافية والجمالية الأدب العربي القديم الذي استأثر بنصيب وافر من هذه الدراسة. ومنه بالخصوص الشعر الجاهلي الذي تشكل قراءته ومقاربته استلهاما لروح العقل الجمعي التاريخي العربي قبل الإسلام.

لقد رأى الاستشراق في الشعر الجاهلي المدخل الأنسب لفهم جوهر الحياة الروحية والاجتماعية والسياسية والحضارية للعرب، والمترجم الصادق لهويتهم الحضارية؛ فالشعر على حد عبارة "ابن"قتيبة" (ت 276 هـ):« معدن علم العرب، ومقرّ حكمتها وديوان أخبارها ومستودع أيّامها والسور المضروب على مآثرها والخندق المحجوز على مفاخرها والشاهد العدل يوم النّفار والحجة القاطعة عند الخصام... » .[22] ولما كان الشعر بهذه المنزلة الرفيعة اتجهت أنظار بعض المستشرقين إلى دراسته وتحقيقه وفهرسته وترجمته ولا يستطيع أحد أن ينكر إسهامهم في دراسة الأدب العربي القديم عموما والشعر الجاهلي خاصة وبمنهجيات لم يألفهما أصحاب الشأن فيه، وبغض النظر عن مدى صحة هذه الأنظار النقدية في نصوص الشعر الجاهلي وموضوعية مقارباتهم أو ابتعادها عن روح هذا الفن ووقوعهم في أخطاء علمية ومنهجية وتاريخية إلاّ أنّ أثر تلك الدراسات والقراءات كان جليًّا في إثراء الكتابات النقدية العربية في العصر الحديث إما متابعة وتثمينا أو ردًّا وتفنيدا.

سنأتي في هذا المبحث على ذكر بعض آراء المستشرقين ممن عنوا بدراسة الشعر الجاهلي قصد تبيان إسهاماتهم في الكشف عن أهمية هذا المكون داخل الثقافة العربية والإسلامية

وخارجها، وما هي الخصائص الموضوعية والجمالية لهذا المنجز اللغوي الفريد الذي يبقى مجالا خصبا لتأويل أنساق الثقافة العربية الظاهرة والخفية؟.

**1- جيمس تشارلز ليال J.charles layall ( 1885– 1920)**:[23]

تجلت أهمية الشعر عند "ليال" من جهة أصالته وصدوره حقا عن شعراء عاشوا في العصر الجاهلي، وقد تناول هذه القضية في سياق مناقشته بعض الدارسين الغربيين ممن شكّوا في صحّة هذا الشعر، وأن مقاطع بكاملها من أشعار شعراء هذه الفترة قد لفقها بعض العلماء وقدّم دليلاً تاريخيًا يؤكّد صحّة الأشعار وقائليها؛ وهو أن اللاحق (شعراء القرن الأول الهجري) قد احتذى مثالاً سابقًا في الزمان يقول في هذا الصدد:« ثمة سبب آخر كي نثق في أصالة ذلك الشعر القديم الذي بين أيدينا، وينفي عنه دعوى الانتحال على يد آخرين، فقد كان من مقتضيات الشعر في أول العصر الإسلامي، إذ أن مشاهير الشعراء في القرن الأول الهجري: الفرزدق وجرير والأخطل وذا الرمّة ساروا على نهج أجدادهم شعراء العصر الجاهلي واتبعوا نفس تقاليدهم بلا أي استثناء ».[24] وهذا ما أشار إليه "ابن قتيبة" في مواضع من كتابه "الشعر والشعراء".[25] وفي هذا السياق، وتأكيدا على أصالة الشعر الجاهلي يقدم "ليال" شاهدا على اعتراف بعض شعراء العصر الإسلامي ببراعة القدامى في معالجة بعض المواضيع، كالقصائد التي وصف فيها الشاعر الجاهلي "عبيد بن الأبرص" العواصف مثل قوله:[26]

سَقى الرَبَابَ مجلْجِلُ الْ أَكْنَافِ، لَمَّاحٌ بُرُوقُهْ

جَوْنٌ تُكَرْكِرُهُ الصَّبَـــا وَهْنًا وَتَمْرِيهِ خَرِيقُـهْ

فالشاعر الفرزدق يشيد بذكر "عبيد بن الأبرص" في بعض قصائده حينما يأتي على ذكر العواصف والرعود، يقول" ليال":« كما أن الفرزدق يذكر اسمه في نص مشهور بوصفه واحدا من الرواد العظام في هذا الفن الشعري » [27].

بالإضافة إلى الدليل التاريخي يقدم "ليال" دليلا لغويا يثبت أصالة الشعر الجاهلي حيث إن هذا الشعر زاخر بمفردات تنتمي إلى استخدام لغوي قديم لم يكن شائعا حين تم تدوين القصائد ووضعها في دواوين وهذا ما يفسر كثرة الشروح القديمة على دواوين الشعر الجاهلي[28]. وأما الدليل اللغوي الذي يسوقه المستشرق "ليال" لإثبات أصالة القصائد الجاهلية فهي تلك السمات الأسلوبية التي يتفرد بها الشعراء القدامى والتي يؤثر الشاعر استخدامها حتى إنها لتدل

عليه بسبب ترددها ودورانها في قصائده فهذا الشاعر عبيد بن الأبرص يحلو له ترديد: (الأولى، أهل القباب، أهل الجرد، ثج، مجلجل، حرق البوارق، خرص، خلل، داوية، ديمومة، شنانة رجبية...)[29].

ويؤكد المستشرق الفرنسي "**ريجيس بلاشير**" ( 1900– 1973) طرح "ليال" حول أصالة الشعر الجاهلي فيقول« فإذا قارنّا المقلدات بالآثار المؤلفة في النصف الثاني من القرن الأول (السابع الميلاد) كآثار جرير أو الفرزدق ظهرت على أنها نتاج صادق للتقاليد الشعرية قبل الإسلام » [30]. إن اعتماد "بلاشير" على إواليات المقارنة بين الأشكال الشعرية القديمة وما ألف في النصف الثاني من القرن الهجري الأول من شأنه أن يجعله يطمئن إلى صدق التقاليد الشعرية التي تعود إلى ما قبل ظهور الإسلام.

## 2–أغناطيوس كراتشكو فسكي ignatij krackovskiy (1883– 1951)[31]

تحددت أهمية الشعر الجاهلي عند هذا المستشرق الروسي من خلال امتداد تقاليده الفنية والمضمونية فيما صدر عن شعراء ما بعد الإسلام، حيث إن شعر الجاهلية طبع شكل القصيدة العربية لغة وموسيقى، وذلل مسالك القول، وجهات المعاني لمراحل شعرية تالية رغم ما طرأ على البيئة العربية والمجتمع العربي من تغيرات وتطورات مختلفة.[32]

لا يمكن إنكار تأثير الشعر الجاهلي فيما أتى من نتاج شعري بعده خاصة في العصر الأموي بسبب استقرار قواعده الفنية التي صيرته المثال المحتذى والنموذج المتبع، إلا أن الشعرية العربية القديمة – ورغم ثبات جوهرها– فهي متطورة متجددة تستجيب لخصائص الإبداع الأدبي الذي بطبيعته يفرض تطورات معرفية وفكرية وجمالية، وما مسَّ الحساسية الشعرية العباسية من تغيير إلا دليل على ذلك فيما عرف بقضية الشعراء المحدثين عند كل من أبي نواس وبشار وأبي تمام.

## 3–سوزان بينكني ستيتكيفيتش Suzanne pinckney stetkevych [33]

آثرت المستشرقة الأوكرانية "سوزان" في قراءتها للقصيدة العربية القديمة استخدام مفهوم النماذج العليا ( **Archetypes**)[34] من مثل طقوس العبور، والتضحية، والفداء والاحتفال والتفاوض والتوسل وهو ما قرره علماء الأنثروبولوجيا (فان جيب، هنري لامنس، مارسيل ماوس...)[35]. وهذه النماذج الإنسانية الأصيلة أو الرموز التأسيسية هي بحسب رأيها المدخل

المناسب لتفسير الشعر الجاهلي الذي« ... يسمح للشاعر بأن يعبر عن تجربته الشخصية من خلال شكل ذي أبعاد نفسية وقَبَلِيَّة وطَقَسِيَّة وأسطورية في الوقت نفسه » [36]. ولكي تبرهن المستشرقة "سوزان" على مدى فاعلية النماذج الإنسانية الأصيلة، والرموز التأسيسية في فهمنا لأنساق الثقافة العربية الجاهلية، وتناسب إشكالية وظيفة القصيدة وقيمتها الجمالية فإنها اختارت في كتابها " أدب السياسة وسياسة الأدب "قصيدة مفضلية للشاعر" علقمة الفحل" التي حسب رأيها تعبر بشكل جيد عن عملية الافتداء أو الإعتاق فتقول:« والنقطة الأساسية، ها هنا، هي أن القصيدة الأولى، أي قصيدة علقمة بن عبدة (المفضلية رقم 119)، ليست مجرد استغاثة أو مناشدة في شكل موزون ومقفى، بل إنها تؤدي وظيفة سلعة للتبادل في عملية افتداء حياة إنسان... أي تكون فدية» [37]

يقول علقمة بن عبدة يمدح الحارث بن جبلة الغساني وقد وقع" شَأس" أخو الشاعر في أسر هذا الملك[38]

وَفِي كُلِّ حَيٍّ قَدْ خَبَطْتَ بِنِعْمَةٍ فَحُقَّ لِشَأْسٍ مِنْ نَدَاكَ ذَنُوبُ
وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إِلَّا قَبِيلُـــهُ مُسَاوٍ وَلاَ دَانَ لِذَاكَ قَرِيــبُ

تقدم سوزان قراءة لهذه القصيدة الطقسية فتقول:« نستطيع القول بأن هذه القصيدة والتبادل الطقوسي الذي تشكل جزء منه لهما عنصر اجتماعي وهو تحقيق استسلام علقمة للملك الحارث، ونقض الشاعر ولاءه السالف للملك اللخمي المنذر، ومبايعته الملك الغساني، وهكذا نرى أن تبادل الهدايا- القصيدة وشأس الأسرى يؤذن بعقد صلة اجتماعية سياسية، كما أن القصيدة أيضا بمثابة خضوع طقوسي، فالشاعر يعلن أنه بلا حول ولا قوة، مهزوم وغريب، ويسترحم الملك راكعا بين يديه » [39].

فبهذا المنظور تترسخ أهمية الشعر الجاهلي وقيمته من وجهة نظر "سوزان" التي ترى في هذا الشعر ملامح الثقافة التي أنتجته، إذ وعينا بأنساق هذه الثقافة الظاهرة والخفية يعمق فهمنا بجماليات القصيدة الكلاسيكية.

### 4-ريناته ياكوبي Renata jacobi:

تتقاطع المستشرقة الألمانية "ياكوبي" مع المستشرقة الأوكرانية " سوزان ستيتكيفيتش" في أنهما تبحثان نص القصيدة العربية القديمة كاملا، وجعله مجالا للقراءة الفنية والموضوعية متجاوزتين

منطلقات المنهج الاستشراقي القديم، الذي يهتم بالظواهر الموضوعية لدى الشعراء أو ملابسات العصر والبيئة[40]؛ فمع جهود المستشرقة "ريناته" من خلال كتابها "دراسات حول شعرية القصيدة الجاهلية "عرفت الدراسات الاستشراقية الألمانية حول الشعر الجاهلي أفقا نقديا مغايرا ووعيا منهجيا مختلفا يتلخص في معاينة النصوص في ذاتها دون النظر إلى السياقات الخارجية التي أفرزته[41]. وفي بحث لها بعنوان " أصول شكل القصيدة" (the origins of qasida form) والذي يعكس جانبا من الرؤية النقدية لهذه المستشرقة، والمنهج المتبع في معاينة النصوص الشعرية في ذاتها خلصت- بعد استقراء ما وصل إلينا من الشعر الجاهلي- إلى تقسيم الموروث الشعري لما قبل الإسلام على نوعين[42]:

1- المقطوعة المونوثيمية الشكل (molothematic) والتي تحتوي على موضوع واحد.

2- القصيدة البولوثيمية الشكل (polothematic) والتي تشتمل على موضوعات مختلفة انضمت إلى بعضها بعضا دونما إشارة إلى تخلص أحدهما من الآخر أحيانا، وأيضا دونما سبب واضح لتتابع هذه لموضوعات فيها، ولعل الشعر الذي كان يقال وقت الحروب أو شعر الرجز هو ما عنته بالنوع الأول من شكل القصيدة فيما تنطبق القصائد كالمعلقات مثلا المتعددة المواضيع على النوع الثاني من شكل القصيدة العربية.

لقد تحددت أهمية القصيدة الجاهلية لدى "ريناته ياكوبي" في كونها إبداع وفن قبل كل شيء، وأن معاينة النص واستقرائه كفيلة بإظهار شبكة العلاقات الشكلية والمضمونية التي تحكم نسيجه.

**رابعا- الرؤية الاستشراقية للنص الشعري العربي الجاهلي:**

كثيرة هي الرؤى النقدية الاستشراقية التي قاربت النصوص الشعرية الجاهلية، ويرجع ذلك إلى تباين المنطلقات الفكرية والأيدولوجية والآليات الإجرائية بين مستشرق وآخر، بالإضافة إلى اختلاف طبيعة مناهج المقاربة التي تراوحت ما بين القراءة النفسية والاجتماعية والتاريخية والتوثيقية (التحقيق) والجمالية والمقارنة والبنيوية والتأويلية...

وفي هذا العنصر سنقدم رؤية استشراقية للمستشرق الألماني "هوفمان بيكر" C.H.BECKER (1876-1933)، ضمنها مقالة نشرت في مجلة الإسلام الألمانية تحت عنوان " محاولة عرض ودراسة للشعر العربي القديم" العدد24 سنة 1987م، وهذه الرؤية تنسجم مع طرح

بحثنا الذي يروم كشف القيمة الفنية والمضمونية والتاريخية للشعر الجاهلي عند بعض المستشرقين، حيث أن "هوفمان بيكر" حاول عن طريق إواليات المنهج المقارن الوصول إلى بيان البعد الإنساني في هذا الشعر، وأن ثمة علاقات تربط بين الأروبيين والشعر العربي القديم، يقول في هذا الصدد:« فإنني أقترح طرح بعض نماذج من الشعر العربي القديم عليكم راجيا منكم أن تتذكروا بأن هناك علاقات معينة تربطنا نحن الأروبيين، رجالا ونساء، بذلك الأسلوب ذي التركيب البعيد الغريب عنا » [43] .

وأول مدونة قديمة –بحسب رأي هذا المستشرق– تكشف القرابة بين العرب وغيرهم من الأمم السامية هي" الكتاب المقدس" في قضايا كثيرة الأدب أحدها.

ففي سِفرِ أيوب يوجد العديد من المقاطع الوصفية التي تصف براري سوريا وحيواناتها تتناص مع أسلوب وطريقة شعراء الجاهلية في تصوير حيوان الصحراء من مثل: الناقة والفرس والحمار الوحشي والظباء[44] وقد برع شعراء في معالجة هذا الموضوع في الشعر الجاهلي من مثل: امرئ القيس، وطرفة بن العبد، وزيد الخيل...

وثاني المدونات التي رأى "بيكر" أنها تتقاطع مع الشعر العربي القديم هي "نشيد الأناشيد" الذي ينسب إلى سيدنا سليمان عليه السلام وتحديدا تلك المقاطع التي تتحدث عن النساء والتغزل بهن وذكر وصلهن وهجرهن والتي توضع جنبا إلى جنب مع أبيات "النسيب" عند الشعراء العرب[45]

أما ثالث المدونات التي استشهد بها "بيكر" على تأثير الشعر الجاهلي في الشعر الانجليزي، وتحديدا القطع الشعرية الشعبية التي قامت شكليا على وفق بناء القصيدة العربية يقول في هذا الصدد:« ولم يكن بين القطع الشعرية التي عرفتها في صباي قطعة أكثر شهرة من "قاعة لوكسلى" looksiy-hall(1842). وكلمات الشاعر نفسه برهان على أنه استوحى شكل تلك القطعة ومضمونها من قراءته ترجمة السير وليم جونز للمعلقات» [46]

يقول الشاعر الانجليزي[47]

كَمْ مَرَّة تَطَلَّعْتُ إِلَى نُجُومِ الثُّرَيَا وهي تَرْتَفِعُ مِنْ بَيْنِ الظِّلَالِ المرِحَة
وتَلْمَعُ كَسِرْبٍ مْنَ اليَرَاعَـاتِ مَنْضُودَةٍ بِسِلْكِ فِضـــــــــة.

تعكس كلمات الشاعر الانجليزي تأثير ترجمة السير وليم جونز للمعلقات السبع، وبخاصة معلقة امرئ القيس "قفا نبك"، كما تعكس استلهام هذا الشاعر شكل القصيدة العربية الكلاسيكية في مقطع رحيل الشاعر عن دياره ووقوفه بديار الحبيبة رفقة الصحب، واستذكار أيام الوصال.

ويستدعي "بيكر" بيت امرئ القيس الذي يقول فيه:[48]

إِذَا مَا الثُّرَيَّا فِي السَّمَاءِ تَعَرَّضَت تَعَرُّضَ أَثْنَاءَ الوِشَاحِ المفَضَّلِ

وذلك من أجل إثبات أثر الشعر الجاهلي بصوره واستعاراته في قصيدة الشاعر الانجليزي.

لقد كانت مقاربة" بيكر" نصوص الشعر الجاهلي بعناصر شعرية ونثرية غربية من أجل إبراز السّمات الإنسانية في شعرنا القديم، وأن المشاعر الطبيعية الإنسانية التي يحفل بها تقيم القرابة بين الأمم ذات الآداب القومية الأصيلة.

**خاتمة:**

نخلص في الأخير وبعد تتبعنا لمفهوم الاستشراق غربيا وعربيا وأهم أدواره التاريخية وعرضنا لوجهة نظر بعض المستشرقين حول أهمية الشعر الجاهلي ومكانته إلى جملة من النتائج أهمها:

- الاستشراق ظاهرة ثقافية غربية موغلة في القدم جسدت اهتمام الآخر (الغربي) بالشرق عموما والعربي الإسلامي خاصة في كافة المجالات من تاريخ ولغة وآداب وعلوم وعادات ومعتقدات وأساطير وعمران....
- فيما يتصل بالشعر الجاهلي نستطيع القول بأن خطاب الاستشراق قد أولى هذا المكون الثقافي أهمية كبيرة تجلت في جهود المستشرقين الذين عكفوا على جمعه وفهرسته وتحقيقه ونشره وترجمته إلى لغات العالم ودراسة قضاياه الفنية والمضمونية باعتباره يمثل فجر تاريخ أمة بأكملها.
- انصبت جهود كل من المستشرق الانجليزي "ليال" والروسي" كراتشكوفسكي" حول أصالة الشعر الجاهلي وامتداد تقاليده ومعاييره الجمالية في ما أتى من نتاج شعري بعده انطلاقا من إواليات المنهج التاريخي الاستشراقي ومبادئ الدراسة الفيلولوجية.
- أهمية الشعر الجاهلي وقيمته في نظر المستشرقة الأوكرانية "سوزان" والمستشرقة الألمانية "ياكوبي" إنما هي من داخل النص باعتباره فنا قبل كل شيء لذا اهتمتا بالجوهر الأدبي

للنصوص، والبحث في أنساقها الظاهرة والمضمرة من أجل فهم طبيعة الثقافة التي أنتجتها.

- إن البعد الإنساني للشعر العربي الجاهلي وتشاركه مع العواطف الإنسانية المشتركة بين الشعوب هو ما حاول المستشرق "هوفمان بيكر" التدليل عليه من خلال استرفاد معطيات المنهج التاريخي المقارن.

**هوامش**

1- بنت الشاطئ عائشة عبد الرحمن: تراثنا بين ماض وحاضر، معهد البحوث والدراسات العربية (القاهرة)، 1968، ص 52.

2 – وزان عدنان محمد: "الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر"، مجلة دعوة الحق، إدارة الصحافة والنشر (مكة المكرمة)، العدد 24، السنة الثالثة ربيع أول 1404 هـ يناير 1984م، ص 15.

3 – الرازي محمد بن أبي بكر: مختار الصّحاح، ضبط وتخريج وتعليق: مصطفى ديب البغا، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع (الجزائر)، ط4، 1990 م، مادة (شرق)، ص 218.

4 – رضا أحمد: معجم متن اللغة، دار مكتبة الحياة (بيروت)، ط1، 1378 هـ – 1959 م، مجلد الثالث، مادة (شرق)، ص 310.

5 - Voir : La Rousse Nouveau dictionnaire de français , 21, Rue Du Mon Tparnasse75283 (paris cedex06), Editions 2006, p 1043 .

6 – رودي بارت: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه، ترجمة: مصطفى ماهر، المركز الثقافي القومي للترجمة، الهيئة العامة للكتاب (القاهرة)، سلسلة ميراث الترجمة، ع 1784، 2004، ص 17.

7 – يذكر زكي مبارك رأي المستشرق "جويدي" في مفهوم هذا المصطلح فيقول:« ذكر السنيور جويدي في محاضرته الأولى بالجامعة المصرية 7 أكتوبر سنة 1926 أن كلمة ( philologie ) تصعب ترجمتها بالعربية، وأن لها في اللغات الغربية معنى خاصًّا لا يتفق عليه أصحاب العلم والأدب؛ فمنهم من يرى هذا العلم مجرد درس قواعد الصرف والنحو ونقد نصوص الآثار الأدبية، ومنهم من يذهب إلى أنّه ليس درس اللغة فقط، ولكنه بحث عن الحياة العقلية من جميع وجوهها... » ينظر: زكي مبارك: النثر الفني في القرن الرابع، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة (القاهرة)، 2012، ص 391.

8 – أ. ديتريش: الدراسات العربية في ألمانيا، دار النشر فراتز شتاينر فيسبادن (ألمانيا)، 1962، ص 8، نقلا عن: سمايلوفيتش أحمد: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، دار الفكر العربي (القاهرة)، 1418 هـ/1998 م، ص 25.

9 – ينظر: رودنسون مكسيم: جاذبية الإسلام، ترجمة: إلياس مرقص، دار التنوير (بيروت)، ط2، 2005 م، ص 52.

10 – سعيد إدوارد: الاستشراق. المعرفة. السلطة. الإنشاء، ترجمة: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية (بيروت)، ط6، 2003، ص 38.

11 – المرجع نفسه ، ص 38.

12 – خرشي عبد الرحمن: فلسفة الاستشراق وأثرها في الصراع الحضاري، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع (الجزائر)، 2013، ص 21.

13 – ينظر: سمايلوفيتش أحمد: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، ص ص 71– 73.

14 – الخربوطلي علي حسني: المستشرقون والتاريخ الإسلامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة)، 1988، ص 34 و 35.

15 – ينظر: سمايلوفيتش أحمد: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، ص ص 73–77.

16 – ينظر: المرجع نفسه، ص ص 77– 79.

17 – المرجع نفسه، ص 80.

18 – المرجع نفسه، ص 81 و 82.

19 – المرجع نفسه، ص 85 و 86.

20 – ينظر: تاج محمد قدور: الاستشراق ماهيته، فلسفته ومناهجه، مكتبة المجتمع العربي للنشر والتوزيع عمان (الأردن)، ط1، 1435 هـ– 2014 م، ص 32.

21 – المرجع نفسه، ص ص 23– 34.

22 – ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم: فضل العرب والتنبيه على علومها، تقديم وتحقيق وليد محمود خالص، منشورات المجمع الثقافي أبو ظبي (الإمارات العربية المتحدة)، ط1، 1998، ص 150.

23 – مستشرق إنجليزي عرف في أوساط الدارسين بتحقيق نصوص الشعر الجاهلي وترجمتها وأشهر نشراته كتاب "المفضليات" للضبي حيث قضى عشرات السنين في تحقيقه بالإضافة إلى أعمال أخرى نذكر منها: "ترجمات للشعر العربي القديم والجاهلي بخاصة" (1885)، نشر ديواني عبيد بن الأبرص، وعامر بن الطفيل مع ترجمة وتعليقات لقرن ( 1913) نشر "قصائد عمر بن قميئة محققة ومترجمة" كمبريدج (1910) توفي سنة 1920 ينظر ترجمته: عبد الرحمان بدوي: موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين (بيروت)، ط3، 1993 م، ص 518 و 519.

24 – ليال تشارلز: ديوان عبيد بن الأبرص، تقديم وترجمة: محمد عوني عبد الرؤوف، دار الكتب والوثائق القومية (القاهرة)، مركز تحقيق التراث، 2015، ص 29.

25 – ينظر: ابن قتيبة: الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الحديث (القاهرة)، 1427 هـ – 2006 م، المجلد الأول، ص 457 و 467 و 473.

26– ليال تشارلز: ديوان عبيد بن الأبرص، ص26.

27– المصدر نفسه، ص24.

28 – ينظر: المصدر نفسه، ص 29.

29– ينظر: المصدر نفسه، ص30 و31.

30 – بلاشير د. ر: تاريخ الأدب العربي، ترجمة: إبراهيم الكيلاني، ديوان المطبوعات الجامعية (الجزائر)، الجزء الأول، 1988، ص 216 و 217.

31 –من أعلام الاستشراق الروسي المتخصصين بالدراسات العربية ولد في مدينة "wilna" الليتوانية سنة (1883) اهتم بتعلم اللغات الكلاسيكية (اليونانية واللاتينية) في المرحلة الثانوية كما تعلم نحو اللغة العربية من خلال اطلاعه على كتب المستشرق الفرنسي "دي ساسي" التحق بجامعة "سان بطرسبرج" كلية اللغات الشرقية سنة 1901 فأكب على دراسة اللغات الشرقية ثم اتجه اهتمامه إلى دراسة الشعر العربي، من أهم أعماله رسالته للماجستير "أبو الفرج الوأواء الدمشقي، دراسة لخصائص إنتاجه الشعري "ترجمته لكتاب "الاعتبار" لابن منقذ إلى الروسية ، "تاريخ التأليف في الجغرافيا عند العرب"، "بين المخطوطات العربية". توفي سنة (1951) ينظر ترجمته: عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين ،ص ص 468– 471.

32 – ينظر: كراتشكوفسكي أغناطيوس: دراسات في تاريخ الأدب العربي– منتخبات، ترجمة: محمد المعصراني، دار النشر "علم" (موسكو)، 1965، ص 04.

33 – أستاذة الأدب العربي ولغات الشرق الأدنى وثقافاته بجامعة ولاية "إنديانا" الأمريكية، عملت على تطبيق المناهج الأنثروبولوجية والتاريخانية الجديدة في دراسة الأدب العربي الكلاسيكي وخاصة استكشاف الجوانب الشعائرية والطقسية، والاحتفالية في القصيدة العربية القديمة. من أهم مؤلفاتها: "أبو تمام وجماليات العصر العباسي" (1991) "الصم الخوالة تتكلم: شعر ما قبل الإسلام وشعرية الطقوس" ( 1993). "أدب السياسة وسياسة الأدب" (1997). "القصيدة والسلطة" (2010)، ينظر: ترجمتها في مقدمة كتابها: أدب السياسة وسياسة الأدب، ترجمة وتقديم: حسن البنا عزالدين، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة)، 1998، ص ص 5 – 8.

34 – ينظر: ميجان الرويلي، سعد البازعي: دليل الناقد الأدبي، إضاءة لأكثر من سبعين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء (المغرب)، ط3، 2002، ص ص 337– 339.

35 – ينظر: ستيتكيفيتش سوزان بينكني: أدب السياسة وسياسة الأدب، ترجمة: حسن البنا عزالدين، ص 50.

36 – المرجع نفسه، ص 51.

37- المرجع نفسه، ص56.

38- علقمة الفحل: الديوان، شرح الأعلم الشنتمري، حققه: لطفي الصقال ودرية الخطيب، راجعه: فخر الدين قباوة، دار الكتاب العربي (بحلب)، ط1، 1389هـ-1969م، ص48.

39- ستيتكيفيتش سوزان بينكني: أدب السياسة وسياسة الأدب، ترجمة: حسن البنا عزالدين، ص73 و74.

40 - ينظر: الرباعي عبد القادر: جهود إستشراقية معاصرة في قراءة الشعر العربي القديم- ريناتا ياكوبي نموذجا- دار جرير للنشر والتوزيع عمان (الأردن)، ط1، 1429 هـ- 2008 م، ص 21.

41 - ينظر: ربابعة موسى: الاستشراق الألماني المعاصر والشعر الجاهلي، مؤسسة حمادة للخدمات والدراسات الجامعية (الأردن)، ط1، 1999، ص 4.

42- الرباعي عبد القادر: جهود استشراقية معاصرة في قراءة الشعر العربي القديم-ريناتا ياكوبي نموذجا، ص55.

43- يوسف حسن عبد العليم : محاولة عرض ودراسة للشعر العربي القديم، تعريب وتقديم، سلسلة تعني بترجمة أعمال المستشرقين الألمان(3)، النسر الذهبي للطباعة (القاهرة)، 1999، ص90.

44- المرجع نفسه، ص90.

45- المرجع ننفسه، ص90و 91.

46- المرجع نفسه، ص91.

47- المرجع نفسه، ص91.

48- المرجع نفسه، ص92.